الظواهر الأسلوبية في التعبير النبوي
قراءة تحليلية
في نصوص من الحديث الشريف

الدكتور

فرحان محمد عمار حمد

الأستاذ المساعد بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز

الأستاذ المساعد بجامعة الفيوم بمصر

تم دعم هذا المشروع
بواسطة عمادة البحث العلمي
بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز
من خلال المقترح البحثي رقم ٢٠١٥/٠٢/٤٢٤٧

العدد العشرون

للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٦م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

تقديم

إن السمت الرائع الراقي للتعبير النبويّ أحرى أن يُلفت الدارسين إليه . أن يدفع إلى الكشف عما جنّ من أسرارٍ ، وما انطوى عليه من عبقرية الأداء والنظم والبناء الأدبي العالي. هذا الأمر الذي تبوَّأ به في الفصاحة والبيان العربي مكانًا عَلِيًّا . هكذا جاءت فكرةُ هذه الدراسة. إن التأمل الدقيق لمفاصل التعبير وأركان بنائه قد تسفر عن اكتشاف شيءٍ من أسرار عظمته .

وعلى الرغم من أن معالجتنا الأسلوبية في هذه الدراسة قد تناولت التعبير وشكل النص في جُلّ الظواهر التي درسَتْها ، فإنّا نختلف مع رائد من رواد هذا المنهج في قوله : " إن الدرس الأسلوبي لا يتسلط على المضمون "[1] ، إذا ما احتسبنا أن المعنى واقعٌ ضمن المضمون . فقد نَدَّتْ لدينا ظاهرتان أو أكثر ، بُنِيَ التحليلُ فيهما على المعنى منطلقًا أوليًّا[2]، وسَلِمَ لنا الاكتشاف !

وثَمّ قضيةٌ أخرى ذاتُ خطرٍ في الدراسات الفنية القائمة على نصوص الحديث الشريف. إنها قضية ثبوت عبارته في نسبتها إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم . ولقد ورد في تاريخ الرواية أن بعض الآثار قد رويت بالمعنى وبعضها روي باللفظ والمعنى معًا . وزعم بعضُ متأخري اللغويين أن أهل اللغة الأوائل تركوا الاستشهاد بالحديث النبوي ؛ بالنظر إلى ما أجيز من روايته بالمعنى ولَحْنِ بعض رواته من الأعاجم . وقد ثبت أن هذا الزعم لا يثبت عند الاستدلال لأسباب متعددة ، من أبرزها أن كثيرًا من أئمة النحو واللغة كأبي عمرو بن العلاء

---

(١) د. سعد مصلوح : دون اللوم وفوق العتاب – مجلة علامات ج٣ م١– شعبان١٤١٢هـ / مارس١٩٩٢م– ص٢٠٩.

(٢) ظاهرتا : وقف الاطراد الفكري ، والتدافُع التعبيري .

والخليل والكسائي وكثير غيرهم ، ثبت احتجاجُهم بنصِّهِ في كتبهم(٣).

وخلاصة المقال أن ثمة بواعثَ قويةً تدفع إلى الاطمئنان إلى حَرفيّة ورود النصوص عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، منها شدة تحري أئمة الرواة وعلماء الحديث في روايته وطرقه وتمحيص الرجال ، ثم تلك النهضة الكبرى في مجال التحقيق التي أنتجت كتبَ الصحاح ، بل كتب السُّنة الستة المعروفة(٤). ولاريب أن قواعد الجرح والتعديل الصارمة تكفل لهؤلاء التحري الشديد والدقة المتناهية في الرواية . وقد كان العرب منذ أول عهدهم أهل رواية وحفظ ومَلَكة لا يَنِدّ عنها شيءٌ في هذا المجال . وقد ذكروا أن " الرواي للحديث بالمعنى كان يمنع الكاتبين أن يأخذوا عنه ، حتى لا يلتبس الأمرُ ، فيظن قارئُ كتبِهم أنه لَفظُ النبيّ عليه الصلاة والسلام ... على أن طائفة من أصحاب الحديث والفقه والأصول لا تجيز إلا اللفظ مهما كان الراوي عالمًا بالألفاظ والمقاصد ، خبيرًا بما يحيل معانيها "(٥).

وفي التعامل مع النص الشريف يرى بعضُ الأسلوبيين ألا يتم دراسةُ النص العربي للحديث الشريف على أن غاية صاحبه صلى الله عليه وسلم هي الإبداع الأدبي ، حاشاه ، عليه السلام من ذلك ، بل إن وَكْدَهُ الأول والأخير كان تبليغ الرسالة(٦). وكانت فصاحتُه سليقةً وفطرة فطره الله عليها ، لا مُدَّعاةً ولا مُتكلّفة .

إن الناظر في دراسات السابقين في هذا المجال يجد عددًا يَعِزّ عن الرصد

---

(١) يراجع حول هذه القضية مستوفاةً : د.أحمد مختار عمر : البحث اللغوي عند العرب – عالم الكتب – القاهرة – الطبعة الثامنة ٢٠٠٣م – ص٣٥-٤١.

(٢) يراجع : د.كمال عزالدين : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية – دار اقرأ – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٤ه/١٩٨٤م– من ص٢٧ حتى ص ٣٨ .وفيه شواهد جمّة لشدة التحري في الفظ والحرص عليه.

(٣) السابق ص ٣٩ .

(٤) يراجع: د.عبدالعزيز فتح الله : الأسلوبية والنص النبوي الشريف..مدخل للدراسة – رجب١٤٣٠ه/٢٠٠٩م – (د.ن.) – ص ٣٥.

من البحوث التي عالجت أسلوب الحديث النبوي من وجهات بلاغية أو أسلوبية أو نحوية ، دلالية أو غير ذلك . وإذا أردنا أن نوجز القول في هذه الدراسات فإنَّا ذاكرون عددًا وصلت إليه أيدينا منها ، ربما لا يكون أهمها لكن له قيمة لا تنكر في هذا الصدد ، ومنه :

١- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية للدكتور / كمال عزالدين- ١٩٨٤م . وهي دراسة تناولت ألوانًا من علوم البلاغة ، مُطَبِّقًا إياها على جُملة كبيرة من الأحاديث النبوية ، فقد درس التأكيد والتقرير والتكرار والمجاز ، والتشبيه والكناية ، والثروة النفسية في البيان النبوي والوزن الصوتي وألوانَ البديعِ المتعددة، والوصف بأنواعه ، والقصة في البيان النبوي . فهو سِفرٌ شاملٌ في الدراسة البلاغية ، وقد تعرض لعدد ضخم من الأحاديث - كما أشرنا - منها ما صادف أن يكون ضمن عينتنا المدروسة . غير أن سبيل التناول والمعالجة عنده مختلفٌ بدرجة واضحة عن دراستنا هذه التي أولت عنايتها لفحص جوانب التعبير الشريف على مستويات الكلمة والجملة والنص فحصًا متعمقًا وموجزًا تبين صورته في غمار هذا البحث .

٢- الأسلوبية والنص النبوي الشريف .. مدخل للدراسة ، للدكتور / عبدالعزيز فتح الله علي عبدالباري - رجب ١٤٣٠ه/٢٠٠٩م.(د.ن.). وقد حصلنا على نسخته من شبكة المعلومات الدولية (موقع الألوكة)عبر الرابط التالي :

www.islamiyatonline.net/library/9025/14972/

وهذا المرجع تخصص في التنظير للدرس الأسلوبي حين يتعرض للحديث النبوي، فوضع حزمة من التقاليد العلمية النقدية والأسس النظرية التي يجب مراعاتها قبل دراسة النص الشريف. ومن ثَمَّ فإن سبيله غيرُ سبيلنا ، لكنه مفيدٌ في توجيه الباحثين إلى طريق التعامل مع النص الشريف عند تطبيق الدرس الأسلوبي.

٣- بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، للدكتور عودة

خليل أبو عودة . وهو بحثٌ قيِّمُ بلغ أكثر من سبعمائة صفحة ، بدأه بعرض الدراسات السابقة في لغة الحديث الشريف ، والجهود اللغوية في شرحه وإعرابه ، ثم تطرق لمسألة الرواية باللفظ والمعنى ، وطريقة تدوين الحديث ، ثم عالج الجملة بأنواعها في النصوص الشريفة بإسهابٍ وتقسيم نحويٍّ واضح . فكانت دراسة نحوية متميزة. ومن ثم فهي بعيدة عن مرمى دراستنا ، مفيدة لها في زوايا جزئية وثانوية.

٤- بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف، أطروحة ماجستير، إعداد/ سهام سديرة – جامعة منتوري بالجزائر . وقد اختص هذا البحث – كما هو عنوانه – بالقصص المحكية التي وردت في الأحاديث النبوية ، مقتصرًا على عينة ، ومعالجًا عددًا من القضايا في إطار العنوان مثل مدلول السرد والقصة، ثم بنيتي الزمن السردي والفضاء السردي في القصة بوجه عام ، ثم تطبيق ذلك على قصص الحديث النبوي ، ونحوًا من هذه المسائل المختصة. ومن الواضح أن زاوية النظر في هذه الدراسة مختلفة عن معالجتنا الظواهر الأسلوبية في التعبير النبوي ، وإن أفدنا منها في مسائل جزئية اختصت بالسمت الحكائي في قصة (صاحب جريج) وحديث (حائط المدينة) ونحوهما .

وبعد ، فإن عددًا يعزّ عن الإحصاء من الدراسات البلاغية والأسلوبية عالجت نص الحديث الشريف ، منها ما وقع تحت أيدينا فأفدنا منه ، ومنها ما لم نصل إليه ، أو أعرضنا عنه اكتفاءً بالمُتاح ، أو من جرّاء اختلاف طريقة التناول بيننا وبينه .

* * * * * *

إن الرؤية المحددة لهذه الدراسة هي الوجهة الأسلوبية . إنعام النظر في النص العربي الشريف ألفاظًا وجُمَلًا وتراكيبًا ومجموعًا متكاملًا . العينة المدروسة منتقاةٌ بحسب القراءة الأولى للباحث ؛ إذ توقَّعَ أن يستنبط منها ما يحدس به من أسرار ومزايا أدبية بليغة. إن النهج الأسلوبي المستخدم في التحليل ليس جديدًا . بل إنه يكاد يكون ليس حديثًا أيضًا ؛ فإن " المباحث الأسلوبية الحديثة عُرِفَ بعضٌ منها في التراث البلاغي تحت اسم (علم المعاني) وهو واحدٌ من فروع علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع "[٧]. وإذا كان بيير جيرو قد قال : " إن البلاغة أسلوبيةُ القُدامَى "[٨] ، فربما أمكن أن نعدَّ الأسلوبية بلاغة المحدثين[٩] ، ومن هنا فإن الدرس الأسلوبي ليس مُنبَتَّ الصلة بما سبقه من علوم تتسلط على النص تحليلًا ومعالجة ، إن لم يكن امتدادًا طبيعيًّا لها ، فضلًا عن أن يكون شبيهًا أصيلًا بها.

ويدور التحليل الأسلوبي – كما نَظَّر أئمةُ هذا النهج– في مداراتٍ دراسية ثلاثة، هي : " العنصر اللغوي ، إذ يعالج نصوصًا قامت اللغة بوضع شفرتها ، والعنصر النفعي الذي يؤدي إلى أن نُدخل في حسابنا مقولات مثل المؤلف والقارئ والموقف التاريخي وهدف الرسالة ، وغيرها . والعنصر الجمالي الأدبي، ويكشف عن تأثير النص على القارئ ، وعن التفسير والتقويم الأدبيين له"[١٠].

---

(١) د. أحمد درويش : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث – دار غريب للطباعة – القاهرة – (د.ت.)– ص٨٥.

(٢) قادة يعقوب: الأمثال النبوية دراسة أسلوبية – ماجستير من معهد اللغة العربية بجامعة الجزائر– ٢٠٠٢/٢٠٠٣م – ص ١٢.

(٣) يراجع : السابق والصفحة .

(٤) نفسه ص١٣ ويراجع : د. عبد العزيز فتح الله : الأسلوبية والنص النبوي الشريف – سابق ص ٣٢. وكلاهما استقى هذا التقسيم لعناصر التحليل الأسلوبي من : برند شبلنر في كتابه : علم اللغة والدراسات الأدبية .

وقد تعاملت دراستنا هذه مع تلك العناصر الثلاث بدرجاتٍ متفاوتة. اتضح العنصر اللغوي جليًّا في معالجة المفردات والجمل في جانبها الدلالي ، وقد اعتنت في حالات أخرى بالغاية السامية للنص والتوجيه الأخلاقي الذي يتبناه ؛ بحسبانه هدفًا للصياغة الأسلوبية. وفي نهاية الشوط لم تغفل الوجه البديع والصورة البهية للبيان النبوي الشريف.

وقد بُنِيَتْ هذه الدراسةُ الموجزةُ على سبعة نصوص شريفة متفاوتة الحجم ، أسفرت لدى تحليلها ودرسها عن عشر ظواهر أسلوبية مختلفة بين البسيط منها والمركب. وقد جُعِلَتْ عُنواناتُها فواصلَ جزئيةً انقسم إليها البحثُ الذي جاء في مجموعه وحدةً واحدةً متكاملة قامت بِنيتُها الكليةُ على الظواهر الأسلوبية الآتية:

السمت الحكائي – التوازن البنائي – التمثيل والتخييل – الاطراد والتدافُع التعبيري – وقف الاطراد الفكري – الكناية والإيحاء – الاستغناء النسقي – التناهي القطعي . وقد ختمت الدراسة بالكشف عن أهم النتائج العلمية والتوصيات الدراسية، متبوعةً بِثَبَتٍ ضمّ نَسَقًا بأهم المصادر والمراجع التي عوّل عليها البحث . والله ولي التوفيق.

****

السمت الحكائي

ونعني به اتخاذ النص شكل قصة أو حكاية ، لها بداية ووسط ونهاية ، وبها بعض عناصر الحكي ومقوماته مثل التشويق ونحوه. ويبدو ذلك الطابع الأسلوبي أكثر وضوحًا – فيما درسنا من نصوص التعبير الشريف – في حديث صاحب جريج، حيث إن الحديث كله ورد على هيئة قصة مكتملة الأركان شخوصًا وحوارًا وأحداثًا. ولا يخفَى أن " القصص النبوي قصير وهادفٌ ، ينبع من الواقع التاريخي ..... ويعد من أنجع الطرق التي اتبعها الحديثُ النبويُّ في تأديب النفوس ، وتقرير قواعد الهداية فيها"(١١). ويورد البخاريُّ نصَّ الحديث هكذا:

(حدثنا عياش بن الوليد قال : حدثنا عبدالأعلى قال : حدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبدالله بن قسيط ، عن محمد بن شرحبيل (أخي بني عبد الدار) عن أبي هريرة قال : " سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " ما تكلم مولود من الناس في مهد إلا عيسى بن مريم (صلى الله عليه وسلم) وصاحب جريج ، قيل : يا نبيَّ الله ، وما صاحبُ جُريج ؟ قال : فإن جُرَيْجًا كان رجلًا راهبًا في صومعة له ، وكان راعي بقرٍ يأوي إلى أسفل صومعته ، وكانت امرأةٌ من أهل القرية تختلف إلى الراعي، فأتت أمُّهُ يومًا ، فقالت: يا جريج (وهو يصلي) فقال في نفسه (وهو يصلي) أمي وصلاتي ، فرأى أن يُؤثرَ صلاته ، ثم صرخت به الثانيةَ ، فقال في نفسه : أمي وصلاتي ، فرأى أن يُؤْثِرَ صلاتَه ، ثم صرختْ به الثالثة ، فقال : أمي وصلاتي ، فرأى أن يُؤثر صلاته، فلمّا لم يجبها ، قالت : لا أماتك الله يا جريج حتى تنظر في وجوه المُومِسات ، ثم انصرفت ، فأُتِيَ الملكُ بتلك المرأة ولدتْ ، فقال : ممن ؟ قالت : من جريج ، قال : أصاحبُ الصومعة ؟ قالت : نعم ، قال : اهدموا صومعته

---

(١) سهام سديرة : بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف – ماجستير من كلية الآداب جامعة منتوري /قسنطينة – الجزائر– ٢٠٠٥/٢٠٠٦م – ص ٣٠.

وائتوني به ، فضربوا صومعته بالفؤوس حتى وقعت ، فجعلوا يده إلى عنقه بحبل ، ثم انطلق به ، فَمُرَّ به على المُومِسات فرآهنَّ ، فتبسم وهنَّ ينظرن إليه في الناس . وقال الملك : ما تزعمُ هذه ؟ قال : ما تزعمُ ؟ قال : تزعم أن ولدها منك، قال : أنتِ تزعمين ؟ قالت : نعم ، قال : أين هذا الصغير ؟ قالوا : هذا في حجرها ، فأقبل عليه فقال : مَن أبوك ؟ قال : راعي البقر ، قال الملكُ : أنجعل صومعتك من ذهب ؟ قال : لا ، قال : من فضة ؟ قال : لا ، قال : فما نجعلها ؟ قال : رُدُّها كما كانت ، قال : فما الذي تبسمتَ ؟ قال : أمرًا عرفتُهُ : أدركتني دعوةُ أمي ، ثم أخبرهم .)[١٢]

وبتأمل نص الحدث – وهو نصٌّ إخباريٌّ – نلمس عناصر السمت الحكائي ماثلةً في جنبات قصة جريج العابد ، وتبدو لنا المحاور الآتية :

١ – **الحوار والخطاب** : والحوار يدور بين الملِك والعاهرة ، ثم بين الملك ورجاله ، ثم بين الملك وجريج ، ثم بين جريج والرضيع ، وأخيرًا بين الملك وجريج. وفيها يبدو الخطابُ ملموسًا في أفعال الأمر وأدوات الخطاب . وفيه خطابٌ من طرف واحد هو خطاب الأم لجريج. والحوار مع الخطاب – وهما متلازمان غالبًا – تمثيلٌ للواقع وعرضٌ له في صورة تجسده وتورث الإقناع بالمعنى المطروح في النص ، كما أنه يكشف عن الملامح النفسية والعقلية للشخصيات المتحاورة والمخاطبة . ويضاف إلى ذلك أن " ذهن المتلقي يكون أكثرَ تجاوبًا وتَفتُّحًا مع الحوار على نقيض الخبر الذي يُلْقَى مجردًا من الحوار "[١٣].

---

(١) الأدب المفرد – تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي– دار البشائر الإسلامية – بيروت– الطبعة: الثالثة ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م– باب دعوة الوالدين – ٢٦/١.(صححه الألباني).

(٢) د. هناء محمود شهاب ، رعد رفعت محمد مولود : أسلوب الخبر في الحديث النبوي الشريف من حوار يثيره الصحابة – مجلة آداب الرافدين – السنة ٢٠١٣م – الإصدار ٦٧ – ص٣٧.

كما أن الخطاب يفترض بداهةً مسألة التواصل والتفاعل، ويبدو ذلك من طبيعته ، بل من تعريفه أيضًا ، فهو " فعل إنجازي آني يشترط لقيامه وحدوثه مشاركة طرفي الخطاب من خلال تفاعلهما مواجهة ومشافهة"(١٤) .

٢- **الحبكة** : وهي أن يكون النص محتويًا على حكاية منضبطة ، أي تحمل في طياتها شدةً يعقبها انفراجٌ ، وهما ما يُعرف بالعقدة والحل . فالعقدةُ في حديث جريج هي اتهام المرأة له عند الملك بالخطيئة معها وتصديق الملك لذلك الاتهام. أما حلّ العقدة فيتمثل في نطق الوليد ببراءة جريج.

٣- **الإثارة** : وهي عنصر قصصي يثير هنا عدة أمور منها :

- **إثارة الشجن** : وهذه نستشعرها في كلام الأم لابنها جريج ، وامتناعه عن الرد عليها لانشغال بالصلاة . فتجد الأم تكرر النداء والابن يؤثر صلاته فلا يرد فتنصرف غاضبة . والشجنُ الهمُّ والحُزن.
- **إثارة الترقب والمتابعة** : وهذه تبرز بعد القبض على جريج ، إذ يتابع المتلقي القصة مترقبًا كيف تنتهي.
- **إثارة الدهشة** : وهي ملحوظةٌ بقوة عند مخاطبة جريج للوليد [فأقبل عليه فقال: مَن أبوك ؟] .
- **إثارة الذهول** : وتحدث عند وقوع المعجزة بنطق الوليد ببراءة جريج : [قال : راعي البقر] .

٤- **حضور الراوي** : في حرصه على الإيضاح في موضع واحد بقوله : (وهو يصلي).

---

(١) شعيب محمودي : بنية النص في سورة الكهف ..مقاربة نصية للاتساق والسياق – ماجستير من كلية الآداب جامعة منتوري– قسنطينة – الجزائر – ٢٠٠٩/٢٠١٠م – ص ٢٩.

وهكذا يبدو السَّمْتُ الحِكائِيُّ في الحديث السابق مبنيًّا على حدثٍ تاريخيٍّ مصدرُهُ الوحيُ الإلهيُّ ، يحكيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم كما أوحي إليه. والقصة التاريخية في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم إما أن تكون "حكايةَ واقعٍ تاريخيٍّ مَضَى وانقضى ، وإما حكاية واقعٍ سيكون في آخر الزمان"(١٥). وهي هنا ماثلةٌ في التاريخ أصلًا ، وسردها على هذا النحو هو بلاغٌ للرسالة ونوعٌ من التوجيه إلى خطورة عقوق الوالدين في أهون صوره وأشكاله ، حتى وإن كان يستند إلى سببٍ وجيه ونبيل هو الحرص على إتمام النسك وترك الانشغال عنه . ومع هذا فقد وجّه الحديثُ بهذه الصورة القصصية إلى ضرورة إيثار بر الوالدين حتى على الصلاة. وأشارت بدايةُ القصة إلى " منزلة البِرّ بالآباء ودُعائهم المستجاب في الأبناء ، ووجوب اتقاء غضبهم عليهم ... وتُحيلُنا المقدمةُ إلى عقدةٍ تُصوِّر تَنازُعَ الواجبين قلبَ جريج : واجب التفرغ لحق الله من كل حق ، وواجب البر بالأم المنادية . ويكون الحلُّ عند البطل إكبارَ الأول لجلاله ، ويتكرر المشهدُ ويتكرر الحل – ثلاث مرات في ثلاثة أيام – ولكن الحلَّ تنشأ منه عقدةُ الأم فتدعو عليه ، ويقع جُريجٌ في محنة الدعوة المستجابة ، محنةٍ ينبت فيها الشرُّ من الخير ، ثم يكون المآلُ إتيانَ الخير البالغ من الشرّ "(١٦) في نهاية إعجازية خارقة.

وفي موضع آخر من بَلاغِهِ صلى الله عليه وسلم يشارك الصحابيُّ – الذي يروي الحديث – النبيَّ عليه السلام في بناء السمت الحكائي ، بطريقة تلقائية تصنعها سرد الأحداث على النحو المحكي في حديث (حائط المدينة) هكذا :

(حدثنا سعيد بن أبي مريم قال : حدثنا محمد بن جعفر عن شريك بن عبدالله

---

(١٥) سهام سديرة : بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف – سابق ص٢٤.

(١٦) د.كمال عزالدين : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية – سابق– ص ٤٦٨،٤٦٩.

عن سعيد بن المسيب عن أبي موسى الأشعري قال : خرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومًا إلى حائط من حوائط المدينة لحاجته وخرجتُ في أثره ، فلمّا دخل الحائط جلستُ على بابه وقلت : لأكونن اليوم بوَّابَ النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يأمرني ، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم فقضى حاجته وجلس على قُفّ البير وكشف عن ساقيه ودلاهما في البير ، فجاء أبوبكر رضي الله عنه ليستأذن عليه ليدخل فقلت : كما أنت حتى أستأذن لك ، فوقف ، وجئت النبي صلى الله عليه وسلم فقلتُ : يا رسول الله أبوبكر يستأذن عليك ، فقال : ائذن له وبشِّرْه بالجنة ، فدخل فجاء عن يمين النبي صلى الله عليه وسلم فكشف عن ساقيه ودلَّاهما في البير ، فجاء عمرُ فقلتُ : كما أنت حتى أستأذنَ لك ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : ائذن له وبَشِّرْهُ بالجنة ، فجاء عُمرُ عن يسار النبيّ صلى الله عليه وسلم فكشف عن ساقيه ودَلَّاهما في البير فمتلأ القُفُّ فلم يكن فيه مجلسٌ ، ثم جاء عثمانُ فقلتُ : كما أنت حتى أستأذن لك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : ائذن له وبشّره بالجنة معها بلاءٌ يصيبه ، فدخل فلم يجد معهم مجلسًا ، فتحوَّلَ حتى جاء مقابلهم على شفة البير ، فكشف عن ساقيه ثم دلَّاهما في البئر ، فجعلتُ أتمنى أن يأتي أخٌ لي وأدعو اللهَ أن يأتيَ به فلم يأتِ حتى قاموا .قال ابنُ المسيّب : فأولتُ ذلك ... قبورهم اجتمعت هاهنا وانفرد عثمان !)[١٧] .

وفي جنبات هذا النص تبدو عناصر الطابع القصصي الآتية :

١- **الحوار والخطاب** : وقد سبق الكشف عما يضفيه هذا العنصر على النص، ويمكن بيسر استنتاج أمثلته عند تأمله .

٢- **المفارقة** : وهي هنا أن يفارق الحدثُ سيرَهُ الطبيعي متحولًا إلى اتجاه مغاير للنمط الجاري عليه. إذن فالمفارقة – من جهة البناء الأسلوبي– هي " انحرافٌ لغوي ولاشك أن هذا الانحراف سيؤدي إلى التعدد في الدلالة، إنَّها

(١) الأدب المفرد – سابق – ٣٩٣/١ (صححه الألباني).

رفضٌ للمعنى المنطوق المباشر لصالح المعنى الغير مباشر"[١٨]. والمفارقة كذلك من جهة الحدث الذي يحمله التعبير ويسعى إلى تأديته. هي مخالفة مقصودة ، " وبغض النّظر عما إذا كان البناء المفارقي يفرز دلالتين أو أكثر فإن المفارقة تعني أيضًا « حدوث ما لا يتوّقع »"[١٩]، أو ما يغاير النسق الطبيعي لمراحل الحدث السابقة. وفي النص الشريف يدخل أبوبكر ثم عُمر رضي الله عنهما على النبي صلى الله عليه وسلم فيأمر الأشعريَّ أن يبشرهما بالجنة . ويجلس كلٌّ منهما بجوار النبي صلى الله عليه وسلم على شفة البئر . وتأتي المفارقةُ عند استئذان عثمان رضي الله عنه في الدخول فتكون البشرى مصحوبة بنبوءة أخرى لم تحدث مع الصاحبين الأولين ، ثم إن عثمان يقبل على البئر فلا يجد مكانًا له بجانب النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه . وهكذا فارقَ المحكِيُّ رتابتَهُ ، وتغيَّر الموقفُ مع عثمان : (ائذن له وبشّرْه بالجنة معها بلاءٌ يصيبه) (فدخل فلم يجد مجلسًا) . ولذلك دلالته الرمزية التي حملها تعليق الراوي في نهاية الحديث.

٣- الرمز والإرهاص : كثير من مواقف النبيّ مع أصحابه من خلال سيرته الشريفة قد يكون لها نبوءةٌ خفيةٌ بأمرٍ غيبيّ مستقبلي لا يلتفت إليه أحدٌ وقت حصول ذلك الموقف ، إلا مَن أُوتِيَ بصيرة نافذة وهبها اللهُ له . فالملاحظ أن حركة وضع النبي وصاحبيه أرجلهم في البئر متجاورين ، وعثمان بعيد عنهم قليلًا ترمز – كما فَسَّرَ ابنُ المسيّبُ – إلى تجاور قبورهم وانفراد قبر عثمان .

٤- النبوءة : في التبشير بالجنة . وتوحي بالرغبة في إبراز مكانة هؤلاء الصحابة . كما أن ثمة نبوءة أخرى تشير إلى الفتنة الكبرى التي انتهت بقتل

---

(١) سهام حشيشي : المفارقة في مقامات الحريري .. مقاربة بنيوية – ماجستير من كلية الآداب واللغات – جامعة الحاج لخضر – باتنة – الجزائر – ٢٠١١/٢٠١٢م – ص ٣٤ .
(٢) السابق ص٣٥ .

عثمان (رضي الله عنه) وزوال خلافته. وقد عُرِفَتْ في النص من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي موسى عن عثمان: (ائذن له وبشره بالجنة معها بلاءٌ يصيبه) .

وقد تقتضي طبيعة الحدث المحكي هذا النمط الأسلوبي / السمت الحكائيّ بداهةً ، وذلك حين يكون مضمون الحديث الشريف قصةً واقعية جرت في حياة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بل جرت له وحده واختصت به فكان هو المبلغ بها والمخبر عنها . ويمثل ذلك (حديث الإسراء والمعراج) بمحاطّه العجيبة ومراحله المثيرة الشاهدة على نبوّة البشير النذير عليه السلام :

(عن ابن عباس قال : لمَّا أُسْرِيَ بالنبي صلى الله عليه وسلم جعل يمر بالنبي والنبيين ومعهم القوم ، والنبيّ والنبيين ومعهم الرهط ، والنبي والنبيين وليس معهم احدٌ ، حتى مَرَّ بسوادٍ عظيم. " فقلتُ : من هذا ؟ قيل : موسى وقومه ، ولكن ارفع رأسك فانظر . قال : فإذا هو سوادٌ عظيمٌ قد سَدَّ الأفقَ من ذا الجانب ، فقيل : هؤلاء أمتك ، وسوى هؤلاء من أمتك سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب " . فدخل ولم يسألوه ولم يفسر لهم . فقالوا : نحن هم ، وقال قائلون : هم أبناءُ الذين ولدوا على الفطرة والإسلام . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " . فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : نعم . ثم جاء رجلٌ آخر فقال : أنا منهم ؟ قال : سبقك بها عكاشة)[٢٠] .

في هذا الحديث نجد النبي صلى الله عليه وسلم يتابع رحلته في معراجه الطاهر فيلتقي الأنبياء والأمم ، النبيّ تلو النبيّ ، والأمّة تلو الأمّة ، حتى يجد كُثْرًا

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي : سنن الترمذي – تحقيق وتعليق/ أحمد شاكر وآخرَيْن – مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر – الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م – ٦٣١/٤ برقم (٢٤٤٦).[صححه الألباني]

من الناس وجمعًا عظيمًا ، فيُخْبَر أنهم أمّتُه ، ويُخبَر أن منهم سبعين ألفًا أيضًا يدخلون الجنةَ بغير حساب . فيتساءل الصحابُ عنهم ، فلا يُخبرهم حتى يظنوا أنهم هم ، وهنا يُخبرهم بصفات أولئك الأبرار ، فيسأله أحدُ صحابته هل هو منهم ، فيردّ عليه بإيجاب ، وحينئذ يسأله آخرُ السؤالَ نفسه ، فيرشده إلى أن السائلَ الأول قد سبقه بتلك الفائدة . وإذن فهي حكايةٌ مكتملة الجوانب ، وخبرٌ مستوفي العناصر . وهذا السمتُ الحكائيُّ يمنحُ النصَّ لذةَ متابعته من جانب القارئ، ولذة الاكتشاف عبر ما يحمله من إثارة وتشويق.

ومما يرتبط بهذا الملمح الأسلوبي عنصر الحوار ، وهو كثيف إلى حدّ ما في ذلك النص الشريف ، وينشأ من احتواء حكاية النص على أكثر من شخصية . والحوار يُلقي على جو النص لونًا من الحسِّية المتمثلة في إدراك المحكي المقصوص إدراكًا مباشرًا ، أي كأنما تلك الحكاية- إلى حدٍّ ما- تُرَى وتُسمع . وهنا تعلو درجة واقعية الخبر مستمَدَّةً من منطقية السؤال والجواب الدائر في ذلك الحوار، والناشئ من توالي الأحداث المثيرة للأسئلة :

- فقلت : من هذا ؟ قيل : موسى وقومه .
- فقيل : هؤلاء أُمَّتُك .....
- فقالوا : نحنُ هم ، وقال قائلون : هم أبناء .....
- فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هم الذين لا يكتوون ولا ..... إلخ
- فقام عكاشةُ بن محصن فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟
- قال : نعم . ثم جاءه آخرُ فقال : .....

وفي مواضع أخرى من بيانه الشريف صلى الله عليه وسلم تبرز الحبكة وعنصر المفاجأة – وهما من وسائل السمت الحكائي في النص العربي- لتكون لبنةً في بناء عنصر أسلوبي آخر هو التمثيل – وسيأتي معالجتُهُ – حيث تخضع

الحالة المثيلةُ لهذا السمت حتى تبدو الانفراجة في صورة مفاجأة. ويمثل هذا في عينة النصوص الشريفة حديث(فرحة الرَّبّ بتوبة العبد) ... : (عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَلَّهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجلٍ بأرض فلاةٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ معه راحلتُهُ عليها زادُهُ وطعامُهُ وشرابُهُ وما يُصلحه فأَضَلَّها ، فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموتُ ، قال : أرجع إلى مكاني الذي أضللتُها فيه فأموت فيه ، فرجع إلى مكانه ، فغلبتْهُ عينُهُ فاستيقظ فإذا راحلتُهُ عند رأسه ، عليها طعامُهُ وشَرابُهُ وما يُصلحه ")(٢١).

وهنا يستخدم منطق الحديث- كما أشرنا- السمت الحكائي/القصصي ، المتميِّز بالحبكة والحل ، وهما عنصران تقوم عليهما الحكاية. فوصول الرجل إلى هذه الحالة من المشقة ، ثُمَّتَ وصولُه إلى وَشك الموت (حتى إذا أدركه الموت ، قال : أرجع إلى مكاني الذي أضللتُها فيه فأموتُ فيه) فهذه حبكةٌ أي عقدة الحكاية. ثم يأتي الحل في هوانِه ويسرِه وعظمتِه : فيرجع الرجلُ فتغلبه عينُه قليلًا ، ويصحو على رؤية دابته واقفةً عند رأسه. ويستعمل النص الشريف للتعبير عن ذلك الحل (إذا الفُجائية : فإذا راحلتُهُ عند رأسه) ليبرز عنصر المفارقة ، تلك المتمثلة في رجوع الدابة من ذات نفسها . كما يستعمل الكناية عن السِّنَة اليسيرة من النوم بقوله : فغلبتْهُ عينُهُ . وللمفارقة وجهٌ آخر لا يخفى على متأمل ! حيث إن " البيان الكريم لا يصوِّر فرحة التائب المقبول بالنجاة التي يحقّ لها أن تطول فرحته وتعمق ، وإنما يصور فرحة الله الذي لا تضره المعصية من العبد ولا تنفعه الطاعة ، في تلك الصورة التمثيلية الرائعة والعجيبة ؛ ولهذه الغرابة كان الخبرُ مُحتاجًا لتأكيده فكان منه أن يسبق بلام الابتداء تعجيلًا لالتفات

(١) سنن الترمذي – سابق – ٦٥٩/٤– برقم (٢٤٩٨) [وتعليق المحققين : هذا حديثٌ حسنٌ صحيح]

السامع وإسراعًا باهتمامه "[٢٢].

وقد تجتمع عدةُ من عناصر الطابع الحكائي في الحديث اجتماعًا ؛ لترسخ المحكيَّ في النفوس ترسيخًا ، وبخاصة في الجوانب الخفية عن البشر من وجود هذا الكون أو مما ينتظر الناس في مآلهم . وأعني هنا عالم الغيب الذي لايكشف عن تفاصيله إلا الموكولون به من الأنبياء والرسل. نلمس هذا- مثلًا - في حديث خلق الجنة والنار ، وهذا نصّه :

(عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " لمَّا خلق اللهُ الجنةَ والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال: فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعدَّ اللهُ لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : فَوَعِزَّتِكَ لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها ، فأمرَ بها فَحُفَّتْ بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لقد خِفْتُ أن لا يدخلها أحدٌ . قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضُها بعضًا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها ، فأمر بها فحُفَّتْ بالشهوات ، فقال: ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعِزَّتِك لقد خشيتُ أن لا ينجوَ منها أحدٌ إلا دخلها)[٢٣].

وبتأمل بناء النص الشريف هنا بمكوناته الأسلوبية نشهد اجتماعًا لعناصر الشكل الحكائي/القصصي الآتية : الحوار والإخبار والخطاب والتصوير والإيقاع ... فإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن الحوار يعبر بداهةً عن أن النص يحتوي على أكثرَ من شخصية – بقطع النظر عما يعرف بالمونولوج أو الحوار مع النفس – فلا يخفَى أن المحكيَّ الشريفَ هنا يحمل حوارًا بين الذات العلية والملك جبرائيل .

(١) د. كمال عز الدين : الحديث النبوي الشريف ... – سابق ص ١١١ .
(٢) سنن الترمذي – سابق – ٤/٦٩٣– برقم (٢٥٦٠) [صححه الألباني]

ويأتي في صورة أوامر إلهية واستجابات المأمور بها ، على هيئة شهاداتٍ متواليةٍ معبِّرة عن حقيقة الجنة وحقيقة النار . ويستغرق الحوار عامة النص الشريف ، ويتدخل فيه راوي الحديث أحيانًا موضِّحًا لسياق الحكي. وفي الحوار نقلٌ مباشرٌ للصورة المحكية إلى الحاضر الراهن ، فتكون القصة أقرب إلى الإدراك المباشر – كما سبق القول – مما لو حُكِيَتْ دون حوار ، كأن يحكيها الراوي بقوله : حدَثَ كذا وكان كذا ، وأن جبرائيل رأى كذا فأقر بروعة الجنة أو بهول النار ، أو نحو ذلك من الحكي الخالي من الحوار الذي يحمل تجسيدًا للمشهد المسرود واضعًا إياه في بؤرة الرؤية المباشرة . وتجسد الحركة صورة الحدث من خلال الحوار ، بالإضافة إلى ذلك النقل المباشر للصورة المحكية :

– فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها ...

– قال : فرجع إليه

– قال : فوعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها ...

– قال : ارجع إليها فانظر إليها ...

أما الإخبارُ بمواضي الأفعال (خلق – أعددت – جاءها – نظر – أعد – رجع – حُفَّتْ ... إلخ) فإنه من خصائص القص الملازمة له في العادة ، كما أنها تحمل إيحاءً بما استقرّ من تهيئة الدارين (الجنة والنار) لأهلهما . ويتصل بذلك ملمح الخطاب الماثل في النص الشريف محمولًا على الحوار المهيمن عليه ، ومفهومًا من الأوامر الممثلة في الأفعال [انظر – ارجع – اذهب] وغيرها ، وكذلك في تاء المُخاطَب المتصلة بالقَسَم [فَوَعزَّتِكَ – وَعِزَّتِكَ] . فهذا الخطاب المتبادل إحدى وسائل الشكل السردي الحكائيّ. وهو بطبيعته التي تحمل – في ارتباطها بموضوع النص – لونًا رفيعًا من التقديس والتعظيم عندما يكون المُخاطبُ هو الإله الأعظم جلّ ذكرُهُ . أقول : هو بطبيعته تلك يمنح الفكرةَ

والمعنى تجسيدًا وحُضورًا أرقَى من الإخبار العادي دون التمثيل الحكائي. ففي الخطاب الحواري صورةٌ تمثيليةٌ للحادث المَحْكِيّ تنقله من كونِهِ ماضيًا تامًّا إلى حاضرٍ ماثلٍ كأنما هو مَرْئِيٌّ مسموعٌ اللحظةَ. والتصوير في النص له أكثرُ من موضعٍ ، يأتي لاحقًا الحديثُ عن بعضها ، لكن المراد هنا صورة الحركة الدؤوب التي يسير بها الحدث المَحْكِيّ معبَّرًا عنها بالأوامر المتوالية والامتثالات العاجلة التي ترسمها أَفْعُلٌ مثل [فجاءها – اذهب إلى النار – فأمر بها – ارجع إليها – فرجع إليها] . وهذه الصورةُ تُسْهِم مع بقية عناصر الحكاية في إضفاء حيوية الواقع وحضوره في الحديث المَحكيّ ، كما تَنفِي عنه صفةَ التراخي أو البطء السرديّ. وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الإيقاع ، وتلفتنا هنا سرعة إيقاع السرد القائمة على تعاقُب الحدث مُعبّرًا عنه بالعاطف المفيد للسرعة والتوالي ، وهو الفاء– أكثر من عشرين مرة – في الأفعال : [فجاءها – فنظر إليها – فرجع إليه – فأمر بها فخُفَّتْ – فقال – فانظر إليها – فرجع إليها – فإذا هي – فرجع إليه – فقال – فانظر إليها – فإذا هي – فرجع إليه – فقال – فيدخلها – فأمر بها فَخُفَّتْ – فقال – فرجع إليها – فقال]. والظاهرةُ تحمل دلالةً على سرعة نفاذ الأمر الإلهي في إعداد كلتا الدارين ، مع سرعة الامتثال له ؛ حيث إن الفاء مفيدةٌ التعقيبَ الذي يقتضي هذه السرعة ، "والمراد بالتعقيب عدم المهلة يتحقق بقِصَر المدة الزمنية التي تنقضي بين وقوع المعنى على المعطوف عليه ووقوعه على المعطوف "(٢٤).

فإذا عدنا إلى التصوير في النص الشريف نجد عبارتين ترفعان دلالة تعبيرية ما، اعتمادًا عليه ، الأولى : (فإذا هي يركب بعضُها بعضًا) ، وهي عبارةٌ قيلت في شأن النار ذكرها الملَكُ بعد رؤيته الجحيمَ الذي أُعِدّ للعصاة. وفي التراكُب

(١) عباس حسن : النحو الوفي – دار المعارف – القاهرة – الطبعة الخامسة عشرة (د.ت.) – ٥٧٣/٣ .

إيحاءٌ تصويريٌّ بالهول والكثافة . والثانية : (حُفَّت) : وهذه الكلمة / الجملة في صورتها ومادتها اللغوية هذه تحمل معنى الإحاطة والإحداق ، كأن الجنّة أو النار مركزُ الدائرة، وأن ما حولهما من المكاره والشهوات إطارٌ كثيفٌ شاقٌ في الأولَى ، وشديدُ الوطء والإغراء مع الثانية . وفي اللغة : حَفُّوا به واحتَفُّوا : أحاطُوهُ وطَوَّقُوهُ .

* * * * * *

التوازن البنائي

ونعني بناء العبارات المتوالية بطريقة متوازنة ، ومتساوية في الأجزاء . وهو يُضفِي إيقاعًا موسيقيًّا وجمالًا أسلوبيًّا على وجه النص . ونأخذ مثال هذه السمة الأسلوبية في عينة هذا البحث من حديثين شريفين . الأول هو حديث صفة حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ونصُّه هكذا :

(عن أبي سَلَّام الحبشي قال : بعث إليَّ عمرُ بن عبدالعزيز فَحُمِلتُ على البريد – فلما دخل عليه – قال: يا أمير المؤمنين لقد شَقَّ عليَّ مركبي البريد . فقال : يا أبا سلام ما أردتُ أن أشقَّ عليك ، ولكن بلغني عنك حديثٌ تُحَدِّثُهُ عن ثوبان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحوض فأحببتُ أن تُشافهني. قال أبو سلام : حدثني ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " حوضِي من عَدَن إلى عمَّان البلقاء ، ماؤُهُ أشدُّ بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابُه عدد نجوم السماء ، مَن شرب منه شربة ، لم يظمأ بعدها أبدًا. أولُ الناس وُرودًا عليه فقراءُ المهاجرين الشُّعْثُ رؤوسًا ، الدُّنْسُ ثيابًا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا يُفتَح لهم السُّدَدُ ". قال عمر : ولكني نكحتُ المتنعمات وفُتِحَتْ ليَ السُّدَد. نكحتُ فاطمة بنت عبدالملك ، لا جرمَ أني لا أغسل رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ)[٢٥].

(٢٥) سنن الترمذي – سابق – ٦٢٩/٤– برقم (٢٤٤٤).[صحح الألبانيُّ المرفوعَ منه]

في هذا النص الشريف يأخذ توازنُ بناء الجمل صفتين : توازن تام وتوازن غير تام . وينشد هذا الأخيرُ قصدًا بلاغيّا ما . في التوازن التام ورد قوله صلى الله عليه وسلم : (الشُّعْثُ رؤوسًا ، الدُّنْسُ ثيابًا) ، حيث نجد العبارتين متوازنتين في بنائهما : تتكون كلٌّ منهما من : مُعَرَّفٍ بأل بوزن [الفُعْل] مرفوعٍ : (الشُّعْث – الدُّنْس)، ثم اسمٍ نكرة مجموعٍ منصوب، وظيفتُهُ النحويّةُ " تمييز" : (رؤوسًا – ثيابًا) . أما التوازن غير التام فإنا نلمسه في التعبير الآتي : (ماؤه أشد بياضًا من اللبن ، وأحلى من العسل) ، وفيه اتزنت الجملتان اتزانًا شكَّلَ إيقاعًا حسنًا ، لكن التعبير النبوي أجرى استغناءً أسلوبيًّا في الجملة الثانية تمثل في ترك إحدى لبنات التوازن البنيوي ، فلم يعادل التمييز (بياضًا) في الأولى بآخر مماثل له في الثانية . ولعل ذلك ينشأ من أمرين يشيران إلى الطبيعة الفصحى للتعبير النبوي الشريف : الأول أن اسم التفضيل في الأولى (أشدّ) من مادة لغوية تحتاج إلى غيرها (بياضًا) في إجراء التفضيل ، بخلاف الثاني الذي كان تعبيره ذاتيًّا . والأمر الثاني مبنيٌّ على الأول ، حيث توخّى النسقُ الأسلوبي غايةً بلاغية هي الإيجاز. لقد كان يمكن القول : (أشد أو أكثر حلاوةً من العسل)، لكنه عَدَلَ عن ذلك لما في الوصف (أحلى) من كفاية تعبيرية ومعنوية ، بخلاف ما فيه من إيجاز كما أسلفنا.

أما الحديث الثاني الذي لمسنا التوازن البنائي في عبارته هو حديث نضع له عنوانًا لتسهل الإشارة إليه ، هو غنيمة الدنيا ، وفيه :

(عن عبيد الله بن محصن الخطمي – وكانت له صُحبة – قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَن أصبح منكم آمِنًا في سِربِهِ ، مُعافًى في جسدِه ،

عنده قُوتُ يومِهِ ، فكأنما حِيزَتْ له الدُّنيا بما فيها)[٢٦].

وفي نص الحديث توازنٌ بنيويٌّ ملحوظ بين العبارات الثلاثة التي يحتوي عليها. وهذا التوازن في بنية تلك العبارات يقوم على تماثل ثلاثة مكونات أو أكثر هي : اسم منصوب + حرف بعينِه + نكرة + ضمير متصل . والوظائف النحوية لها كما يلي : خبرٌ للناسخ منصوبٌ + جارّ + مجرورٌ مُضافٌ + ضميرٌ مُضافٌ إليه. وذلك في العبارتين الأوليَيْنِ [آمِنًا في سِرْبِهِ ، مُعافًى في جسده] . وتتزن معهما العبارةُ الأخيرةُ اتزانًا شكليًّا لِتَكَوُّنِها من ثلاث وحدات هكذا: ظرف مكان ، يتصل به ضمير + اسم نكرة + نكرة متصلة بضمير مضاف إليه أكسبها التعريف: [عنده قوتُ يومه]. ويكملُ التوازنَ بناءُ الوحدات على السجع ، بكلمات متماثلة في عدد الحروف والوضع الإعرابي ، ثم تماثل بل ثبات الحرف الأخير فيها جميعًا [سربِهِ – جسدِهِ – يومِهِ].

* * *

التمثيل والتخييل

إن التمثيل ضربٌ من التشبيه ، " التشبيه عامٌّ والتمثيلُ أخصّ منه، فكل تمثيلٍ تشبيهٌ ، وليس كلُّ تشبيهٍ تمثيلا "[٢٧] . والتخييلُ " أن يَقِفَكَ النصُّ على صورة المحكي بأن يجعلك تتخيله ، وأن يُحضِرَه إلى وعيك كأنّه مرئيٌّ لك "[٢٨] . وفي حديث (فرحة الرّبّ بتوبة العبد) – وقد سبق مرويًّا عن عبدالله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم – يهيمن أسلوبُ التمثيل على جنبات نَصِّه حتى

(٢٦) السابق – ٤/٥٧٤– برقم (٢٣٤٦).[حَسَّنَه الألباني]

(٢٧) عبدالقاهر الجرجاني : أسرار البلاغة فى علم البيان – تحقيق: عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

(٢٨) د.فرحان المطيري : معالم البنية في قصيدة الرحلة – مجلة كلية دار العلوم– إصدار خاص ٢٠١٢م – ص ٣٥.

يشمله كله . وتُبنَى الحكمة فيه من مضاهاة حالة بحالة : فرحة الرب برجوع العبد إليه ، بفرحة المرء برجوع ضالته إليه . وترجيح الحالة الأولى في درجتها عن الحالة الثانية مستعملًا صيغة التفضيل : (أفرح) التي تعني أشدّ فَرَحًا . ومما يلحظ في صفحة النص أن منطق الحديث يسعى إلى التَّسَامِي بالحالة الثانية إلى أقصى درجات المشقّة النفسية والجسدية ، ومن ثَمَّ يكون كَسْرُ تلك المشقة بتحقق المأمول وحصول المَسَرَّة والفرحة. وهنا يرفع الحالةَ الأولى غير المعروفة فوق الحالة الثانية التي قَرَّبها وشرح أبعادها.

ويستفيد أسلوب التمثيل في بلاغته من بعض العناصر المتاحة ، مثل اللفظ والحدث ونهاية الحدث ، في إضفاء الحَرَج على الحالة المَقِيسة ، وهذا ما ندعوه بـ " التصعيب " ، أي بلوغ أقصى درجات المشقة النفسية والجسدية كما مَرَّ ذِكرُه . فالرجلُ معه دابتُه في أرض صحراوية ، إذن فهي كلُّ عُدّتِه وعتاده ، والصحراء شاسعةٌ مهلكة (دويّة مهلكة) ، فيفقد هذه الدابة بما عليها من زادٍ طعامٍ وشرابٍ ونحوه ، في تلك الظروف . ويعبر عن الحدث بقوله (فأضلّها) مع ما في مادة الإضلال من إيحاءٍ بفقدان الهداية والرَّشَاد والصواب . وتأتي نهاية الحدث في عبارته (أدركه الموت) لتُضْفِي على الحالة حرجًا شديدًا ، فالرجل فقد دابته في صحراء مُهلِكة ، وهو نفسُهُ أشرفَ على الهلاك بسبب من ذلك.

وكما أن التمثيل في أساسه – في رأيي– هو تشبيهٌ مُرَكَّب ، وله اصطلاحه في عُرْف البلاغيين ، فإن التشبيه البلاغي في أيسر صوره كان له في كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم القدح المُعَلَّى ! سَرَى في النصوص الشريفة سريانَ الريح الطيبة في عيدان الزرع الغض عند اعتدال الربيع ، فأكسب الكلامَ بهاءً في صوره ومعانيه ، ودَلَّ بقوةٍ على فطرته عليه السلام على الفصاحة والبلاغة والبيان. ففي نصٍّ شريفٍ مرّ بنا – ودعوناه (غنيمة الدنيا)– صورةٌ تشبيهيةٌ تمثيليةٌ أخرى أسَّستْ لِمَعنًى كبير، وتأسَّستْ على أنْ ليس للمرء من

دنياه إلا قِوامه ، أو ما تسع حوصلتُه! وهذه الصورة تُوازِنُ بين مَنْ تحقَّقَ له المنُ والصحةُ والرزقُ الآني ، بحالةِ آخَرَ آلَتْ إلى حوزته هذه الدنيا بما عليها. وفي ذلك لفتُ نظرِ الإنسان إلى مبدأٍ حيويٍّ مُهِمٍّ فيه له فائدةٌ حِسِّيَّةٍ ومعنويّةٍ كُبْرَى ، هو القناعة بالحال الماثلة المشار إليها (الأمن – الصحة – زاد اليوم). فهذه الحال ينتفي معها الخوفُ والاضطرابُ والضعفُ والمرضُ والفقرُ والسؤال. ويتلاقَى النَّصُّ الشريفُ هنا مع آخَرَ ، مقولتُهُ هي : (قَالَ: " يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ ")[٢٩].

ولعلّ الناظر في الأمور الثلاثة المتضمنة في النص [أمن الغوائل– السلامة والصحة– كفالة الرزق] يجدها أهمَّ وسائل سعادة المرء في حياته .

أما التخييل فقد عَنَيْتُ به – كما سبق القول – أن يضع النصُّ صورةً للمَحكِيّ في مخيلة المُتَلَقِّي فيستحضر الواقعةَ المَحْكِيَّةَ كما حدثتْ ، ويُبْنَى التخييلُ على صورة وصفية قوامُها عباراتٌ ليس التشبيه بالضرورة سبيلًا إلى رسمها. ومِثالُ هذا الملمح الأسلوبي ملحوظٌ في (حديث صاحب جريج) – وقد مرّ ذِكْرُه – وفيه (وكان راعي بقرٍ يأوي إلى أسفل صومعته) حيث يخيّل للقارئ موقع هذه الصومعة، وكيف أنها كائنةٌ على مرتفعٍ من الأرض، ربوة أو نحوها ، أو هي مرتفعة قليلًا. ولذلك قال: يأوي إلى أسفل صومعته. وفي الحديث عبارة وصفية ، ممتدة شيئًا ما ، وهي :(فضربوا صومعته بالفؤوس حتى وقعت ، فجعلوا يده إلى عنقه بحبلٍ ، ثم انْطُلِقَ به ، فَمُرَّ به على المُومِسات فرآهُنَّ ، فتبسَّمَ وهُنَّ ينظرن إليه في الناس) . في هذه العبارة صورةٌ كاملة للحركة رُسِمَتْ في النصّ تُمثِّلُ لحظة القبض على الراهب من قِبَل رجال الملك ، وهدمهم لمعبده المتواضع ،

(٢٩) مسلم بن الحجاج النيسابوري : المسند الصحيح المختصر ... – تحقيق / محمد فؤاد عبدالباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٢٢٧٣/٤– رقم الحديث ٢٩٥٨.

وكيف كبَّلُوهُ بحبلٍ ثم مَرَّ على العاهرات جالساتٍ ينظرن إليه .

* * * * * *

الاطِّراد والتَّدَافُع التعبيري

الاطرادُ أن يجري الكلامُ مَجْرًى واحدًا مُتَّسقًا ، أي أن تُصاغ عبارات النص بطريقة واحدة عند إنشائها ، بحيث تطّردُ وتتوالى في اتجاه معنًى عامٍّ واحد ، أو يكاد يكون واحدًا . وهذا يشبه ما يُعرف بالإطناب أو الاسترسال . ووظيفتُه في المثال الذي معنا هي تجسيد الهوان . ففي حديث (صفة حوض النبيّ) نقرأ العبارة الآتية :

(أول الناس ورودًا عليه فقراءُ المهاجرين الشُّعْثُ رؤوسًا ، الـدُّنْسُ ثيابًـا ، الذين لا ينكحون المُتنعِّمات ، ولا يفتح لهم السُّدَد). وفيها يبرز الاطراد الأسلوبي من خلال تعديد صفات أولئك الفقراء الذين يمثلون أول طائفة ترد على حـوض النبـيّ صلى الله عليه وسلم في الآخرة لتشرب منه. وقد اطـرد الحـديثُ عـن صـفاتهم ومزاياهم أو ما يُعرفون به ، فاطردت لهم أربعُ صفاتٍ متواليـة هـي : الـرؤوس المغبرة المتلبدة الشَّعْر ، والثياب المتسخة جرَّاء البؤس والفقر ، وأنهم لا يتزوجون نساءً حسناوات مُنَعَّمات الجسد والمعيشة ، كما أنهم لا يُبالي أحدٌ بهم ، ويُمنَعون من الدخول على الأمراء والسادة ؛ استهانةً من الناس بهم. ومن هنا تكبرُ المفارقةُ فـي حظوتهم بالقبول في الآخرة. وهكذا فالاطرادُ هنا تسلكه فكرةٌ واحدةٌ هي صفات هذه الفئة من المسلمين. وهو شبيه بالإطناب كما أسلفنا في كونه ملمحًا بلاغيًّـا يـؤدي غرضًا فنيًّا في النص ، بخلاف التطويل الذي يعد زيادة طائلها قليل ، وكمـا يقـول أبوهلال العسكري : " فالإطناب بلاغة؛ والتطويل عىّ؛ لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلًا بما يقرب. والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نَزِهٍ يحتوى على زيادة فائدة

"(٣٠) .

وينبغي أن ننتبه هنا إلى أن هذا النص الشريف لا يدعو مطلقًا إلى تـــرك النظافة والابتعاد عن طيبات الحياة مما أحلّ الله ، لكنه يعرض صورة أُناسٍ تلـــك حالُهم التي هم عليها ولم يتعمدوها ، إذ هي قدرهم الذي يعوضهم الرّبُ جل وعزّ عنه في الآخرة خيرًا كثيرًا .

أما التَّدافُعُ التعبيريّ فهو كالاطراد في كونه مُتَعَلِّقًا بالجُمَل والعبارات داخل النص الشريف. وأعني به أن تدفع العبارةُ بحكمها العبارةَ التي تسبقها فكأنما هي تخرجها من النص ، أو هي تُلغِي حُكْمَها وتنسخه وتُجرِي هذا بفعل تطور الحدث من حالة إلى أُخرى. ففي حديث – مر ذكرُه – دعوناه (حديث خلق الجنة والنار) يغدق الله تعالى على الجنة من النعيم ما يفوق التصور في بهائه وروعته ، فيقول المَلَكُ عندما يراه :

– فَوَعِزَّتِكَ لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها

ثم إن الله يُغْلِي ثمنَ هذا النعيم ، فيحيط الجنّةَ بما هو شاقٌّ مـــن المكـــاره ، فيقول المَلَكُ عندئذ :

– وعِزَّتِكَ لقد خِفْتُ أَلَّا يدخلها أحد

وهكذا تدفع عبارتُه الثانيةُ تلك العبارةَ الأولى فتُلْغِي حُكْمَها . كما يُلحَـــظُ أن العبارةَ الأولى بمنطقها قد دفعت بحكمها الأول ما عداها مما يُضادُها في الحكم قبـــل حُصوله ، إذ هي تعني أن هذا النعيم سيحرص عليه الجميعُ دون استثناء . ثم تـــأتي الثانيةُ فتدفعها بدورها ، ولكن مع شيء من الاحتراز والتحوّط في الحكم تحمله لفظة (خِفْتُ) ، كما تحمله لفظة (خَشِيتُ) عند الحديث عن النار . والتدافع التعبيري هنا

(٣٠) كتاب الصناعتين – تحقيق/علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضـــل إبـــراهيم– المكتبـــة العصرية – بيروت ١٤١٩هـــ – ص١٩١ .

ناشيءٌ من هول المَرئِيّ نعيمًا كان أو جحيمًا ، وهو متعلِّق بالمعنى أكثر من تَعَلُّقِهِ باللفظ . وقوله : (فوعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها) حَثٌّ متضمِّنٌ ترغيبًا عن طريق الانطباع ، فقد انطبع في مرئيات الملك صورة بهيجة لنعيم الجنة فجاء تعبيره مؤَكِّدًا روعةَ ما رأى ، كما انطبعت لديه صورةٌ مَهُولةٌ للجحيم فكان التعبير مناسبًا حاملًا قسمًا وترهيبًا:(وعزتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها).

وقف الاطراد الفكري

وهذا أحد ملامح الصياغة الملموسة في النص ، ونعني به أن يُوقِف الناثرُ ما يحتمل من اطراد وتسلسل الفكرة التي لا تبدو لها نهايةٌ قريبة ؛ رغبةً في قطع السبيل على ذلك التواتر المحتَمل الوقوع . والمثالُ الذي معنا من (حديث الإسراء والمعراج) – وقد مَرَّ نَصُّه – يكشف ذلك المفهوم ويوضحه : (فقام عكاشة بن محصن فقال : أنا منهم يا رسولَ الله ؟ قال : نعم . ثم جاءه آخرُ فقال : أنا منهم ؟ قال : سبقك بها عكاشة). وهنا نلمس إيجابية الختام في وقف التواتر المتوقع ، بقوله : سبقك بها عكاشة ، وبذلك يمتنع احتمال تكرار ذلك السؤال : (أنا منهم ؟) ، بعدد الصحابة الحضور ، حتى ولو بلغ عدد الحاضرين سبعين ألفًا مثلًا ، تبعًا لسعة الاحتمال والرغبة بالسؤال والنوال. وهذه الطريقة التي ابتكرها البيانُ النبويّ الأبيّ في وقف الاطراد الفكري صارت مجالًا ووسيلة للمتحدثين من بعده صلى الله عليه وسلم يكبحون بها اطراد الحدث من جانب المخاطبين في حُميّا الكلام ، وبعبارة أخرى محددة ، لقد أضحى التعبيرُ النبويُّ : (سبقك بها عكاشة) وأضرابه " من الأمثال التي أُثِرَتْ عنه صلى الله عليه وسلم فكانت روائعَ خالدةً ، يتناولها الناس من بعده ليقرروا بها الأحكام ، ويسكتوا بها الخصوم "[٣١] .

* * * * * *

(٣١) د. كمال عزالدين : الحديث النبوي الشريف ... – سابق ص ١٩٤– ١٩٥ .

الكناية / الإشارةُ والإيحاء

قد تُحَمَّل الجُمَلُ والعباراتُ في صياغتها بِمغزًى غير مباشر في التعبير، بحيث يشير تركيبُها إلى هاتيك المعاني من زاوية السلامة أو اللياقة أو البعد عن الفجاجة ، أو ترك المباشرة عندما لا تَحْسُنُ في مقامها أو تكون التكنِيَةُ أبلغَ منها.

وفي (حديث صاحب جُرَيْج) تواجهنا أمثلةٌ ثلاثٌ لهذا المَنحَى الأسلوبي في نص الحديث ، ها هي:

- (وكانت امرأةٌ من القرية تختلف إلى الراعي) . وفيه إشارةٌ للعلاقة غير الشرعية وتعاطي الخطيئة . والقصة تُصَدّق ذلك .

- (يأوي إلى أسفل صومعته) بعد قوله : (وكان راعي بقرٍ). وفيه إشارةٌ لاعتياده المَقِيل تحت صومعة الراهب . فإن اجتماع الناسخُ والمضارع بعده : (كان يأوي) تعبيرٌ عن جاري العادة .

- (حتى تنظرَ في وجه المُومِسات) . وفيه دعوة بالفضيحة وبحلول البلاء به من هذه الجهة .

ولا ريب " أن الكناية أوقع من الإفصاح بالذكر ... ذلك أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم على ملزوم معين ومعلوم "[٣٢]، واللازم هو المعنى المباشر القريب ، أما الملزوم فهو المعنى غير القريب الذي يتسع التعبير الكنائي لاستيعابه والإشارة إليه . فاللازم في العبارة الأولى- مثلًا - هو اختلاف المرأة إلى الراعي، أي اعتيادها الذهاب إليه ، والذهاب بحد ذاته قد لا تؤاخذ عليه إذا دل ظاهر الحال أو قل تقيد الأمر بتجارة أو نحوها ، والملزوم هو ما يدعم السياقُ

(٣٢) أبو يعقوب يوسف السكاكي : مفتاح العلوم - ضبط وتعليق/ نعيم زرزور - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م - ص ٤١٢-٤١٣ .

حصولَه من علاقة آثمة جرى التعبيرُ عنها مُخَفَّفًا بعبارة : (تختلف إلى الراعي) .

وفي حديث (آخر أهل النار خروجًا) أمثلةٌ ثلاثٌ أيضا . ولنذكر نص الحديث :

(عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إني لأعرف ىخر أهل النار خروجًا رجلٌ يخرج منها زحفًا فيقول : يارِبِّ قد أخذ الناسُ المنازلَ . قال : فيقال له : انطلق إلى الجنة فادخل الجنةَ ، قال : فيذهب ليدخل فيجد الناسَ قد أخذوا المنازلَ ، فيرجع فيقول : يارِبّ قد أخذ الناسُ المنازل. قال : فيقال له : اتذكر الزمانَ الذي كنتَ فيه ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : تَمَنَّ ، قال : فيتمنى ، فيقال له : فإن لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا ، قال فيقول : أتسخر بي وأنت المَلِك ". قال : فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذُه).

وفي هذا الحديث من مواضع الإيحاء التعبيري ما يلي :

– (إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا) : فيه إشارةٌ إلى الوحي الإلهي الذي حمل تلك المعرفة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

– (أتسخرُ بي وأنتَ المَلِك ؟) : فيه إشعارٌ بفقدان التوقع ، حيث إن العبد المُحاسبَ المُذْنِبَ لم يتوقع هذا العطاء الجزيل الذي منحه إيّاه الرَّبُّ الكريم عز وجل . وفيه استيلاءُ الدهشة على ذلك العبد ، إلى الحد الذي توهَّم معه ان ربَّه يسخر منه ! وان العطاءَ مُجردُ إزراءٍ به .

– (يارِبّ قد أخذ الناسُ المنازلَ) : تعبِّر هذه الجملةُ عن جزع الإنسان وقلقه.

* * * * * *

الاستغناء النسقي/الإيجاز

ونقصد بالاستغناء النسقي أن يستغني نظامُ الجملة عن الكلمة أو العبارة ابتغاءَ سمتٍ بلاغيّ وجماليٍّ يُضفيه هذا الاستغناء على نسق الجملة ونظامها. ويُعرَف في الدرس النحويّ بالحذف ، وهو ما يحدّده أحدُ الباحثين بأنه " الاستغناءُ عن جزءٍ من الكلام لدلالة السياق عليه "(٣٣). وهو مشمول بمعنى الإيجاز المعروف في فن البلاغة غير أن هذه التسمية المقترحة مقصودةٌ بذاتها ؛ لإشارتها – بالإضافة إلى دلالتها التعريفية – إلى الفائدة البلاغية والتجميل الأسلوبي الذي تحدثه هذه الظاهرة في نظم الجملة . وتبدو هذه الخاصة الأسلوبية بقوة ووضوح – من بين النصوص المدروسة – في (حديث صاحب جريج) ، ونجد ذلك في المواضع الخمسة الآتية :

١– قوله : (أمي وصلاتي) حيث إن نسق هذه الجملة قد استغنى عن عدد لايقل عن ستّ كلمات تفهم من سياق القصة . وارتفع الاستغناءُ النسقيّ هنا بهذه العبارة المكتنزة عن العبارة الأطول التي يمكن أن تكون : (يارب هل أُجيبُ أمي أم أستمرّ في صلاتي ، دُلَّنِي) ، أو نحوًا من ذلك التقدير .

٢– (قال : راعي البقر ، قال الملكُ : أنجعلُ صومعتك من ذهب). والذي نطق بعبارة (راعي البقر) هو الطفل الرضيع ! إذن هي معجزة مذهلة لابد أن المشهد قد تضمَّن دهشةً وذهولًا وتعليقًا مُعَبّرًا من جانب الملك ، أو على الأقل من جانب الراوي يصف ذهول المَلِك. ثم يأتي بعد ذلك توجهه بالسؤال إلى جُرَيج : أنجعلُ صومعتك من ذهب ؟. وهكذا فقد اختصرت ظاهرةُ الاستغناء طولَ الجملة بصورة كبيرة.

٣– (ثم أخبرهم) : في هذه الكلمة تُخْتَصرُ القصةُ كلُّها ! فهي تُغْنِي عن سرد الحكاية مرة أخرى للقارئ أو المستمع . مع أنها في الحقيقة سُرِدَتْ للملك

(٣٣) د.عودة خليل أبوعودة : بناء الجملة في الحديث الشريف في الصحيحين – دار البشير – عمّان – الطبعة الأولى ١٩٩٠– ص٦٤٤.

والناس. وإن الحكاية – على الورق – وصلت للقارئ أوالمستمع قبل وصولها إلى الملك والجمهور. وفي الحقيقة التاريخية وصلتهم قبل القارئ والمستمع!

٤- (أُتِيَ الملكُ بتلك المرأة ولدت) : أي قد ولدت من سفاح .

٥- (فما الذي تَبسَّمْتَ ؟) : والإيجاز هنا في الاستغناء عن قوله : (مِن أجله أو بسببه) مثلًا ، أي فما الذي تبسَّمْتَ من أجله ؟.

* * * * * *

التناهي القطعي

وهي ظاهرة أسلوبية تتعلق بإحكام بناء الجملة العربية ودعمها بصورة تكفل لها التعبير عن المعنى تعبيرًا مؤكَّدًا وترسخه في الدلالة ترسيخًا . وبوسعنا أن نعرفه بأنه عملية إقصاء للمعنى أو الفكرة المقصودة بواسطة عدد من الوسائل الأسلوبية – بعض وسائل توكيد الإثبات أو النفي التقليدية – حتى يدرك القارئ أن المعنى بلغ نهايته وذروته وأبلغَ ما يمكن أن يصل إليه. إذن فإقصاءُ المعنى هنا يعني رفعه مكانًا عليًّا ليبلغ أقصى دلالته، ويصبح الحكم فيه مجزومًا به غيرَ قابلٍ لتخلف بعض عناصره ، أي يُقطَع السبيلُ على الاستثناء فيه مطلقًا. ومثال التناهي القطعي ملحوظٌ في حديث صفة حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق ذكرُ نصّه . وفي تلك الظاهرة يستخدم النصُّ عددًا من الوسائل منها : أفعل التفضيل + التمييز + الجار والمجرور

والجار والمجرور هنا مكمل للحالة المتناهية : [ماؤُهُ أشدُّ بياضًا من اللبن]. وواقع الحال أن الماء – لو دققت النظر في صفائه – هو شفاف بلا لون ، لكنك لو نظرت إليه مجتمعًا في نهر أو غيره لَلَمَحتَ فيه لونَ الزرقة ، أو الخُضرة أحيانًا. لكن ماء حوض النبي مختلفٌ عن كل ذلك! هو شديد البياض ، بل إنه في أعلى درجات هذا اللون التي لا مجال بعدها : أشدّ بياضًا من اللبن . وباللبن يضرب المثل للبياض إذا اكتمل حَدُّه. وفي رواية لمسلم (وماؤه أبيض من

الورِق)[٣٤] ، وهي مع دلالتها النسبية على التناهي أيضًا ، لكن اسم التفضيل فيها وَرَدَ من غير طريقه متجاوزًا بعض شروطه لدى النحاة ؛ ولعل ذلك يجعل رواية الترمذي التي معنا أقرب إلى نسق البيان النبوي ؛ فيسلمَ لنا ما ذهبنا إليه من تحليل!. " فكلمة (أبيض) في هذا الحديث خالفت شروط أفعل التفضيل في ناحيتين : أنها لم تُصَغْ من فعل ثلاثي ، وأنها غير قابلة للتفاضل "[٣٥]، وذلك بخلاف استخدام (أفعل) من غير مادة التمييز[٣٦]، كما هي رواية الترمذي. هذا عن التناهي ، أما القَطْعُ ففي الإخبار بهذه العبارة مطلقةً ، والنفي والجزم مطلقًا أيضًا : [مَنْ شرب شربة لم يظمأ بعدها أبدًا] ، حيث الخبرُ قاطعٌ بعدم احتياج الشارب للماء مرة أخرى. ويسهم الجزمُ بـ " لم " والتأبيد بـ " أبدًا " في إطلاق الحكم ، أي جعله نهائيًّا مطلقًا لا تعقيب بعده ولا استثناء .

* * * * * *

(٣٤) مسلم بن الحجاج النيسابوري : المسند الصحيح المختصر ...- ١٧٩٣/٤- رقم الحديث ٢٢٩٢ .

(٣٥) د.عودة خليل أبوعودة : بناء الجملة في الحديث الشريف ... - السابق ص ٥٩٧ .

(٣٦) من المهم التذكير بأن صياغة اسم التفضيل من البياض أجازه الكوفيّون ومنعه البصريون، وقد اختلفوا في التعليل للمنع . راجع : كمال الدين عبدالرحمن الأنباري : الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين - تحقيق/محمد محيي الدين عبدالحميد - المكتبة العصرية- الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م - ١٢٠/١ الهامش رقم١ حتى آخره. وراجع : د.عودة : بناء الجملة...- السابق والصفحة.

النتائج والتوصيات

١- التنوع : فقد عثر البحث بجملة من الظواهر التي تباينت مصادرها وتنوعت سماتها ، فمنها ما انطلق كما هي العادة من الصياغة اللفظية (سواء المتعلقة باللفظة والتركيب ، أو تلك المتعلقة بالنص في مجموعه)، ومنها ما ارتبط في كينونته بالمعنى بصورة أصيلة كالتدافع التعبيري ، ووقف الاطراد الفكري.

٢- الأسلوبيةُ المعنى أيضًا :إن الدرس الأسلوبي لا يمكنه الاقتصار على معالجة شكل النص أو التعبير دون مراعاة المعنى بالدرجة الأولى ؛ حيث رصد البحث عددًا من الظواهر الأسلوبية في النص الشريف تنطلق لأول أمرها من المعنى، في حين أن معظم الظواهر الأسلوبية مبداها ومتعلقها هو التعبير والتركيب ، ثم المعنى في مرحلة تالية.

٣- النصُّ الشريف نبعٌ ثرّ :إن إنعام النظر في نصوص الحديث عن طريق التحليل الأسلوبي كفيلٌ باكتشاف ظواهر أسلوبية جديدة غير معروفة تثبت تفوق البيان العربي في نصوص السنة النبوية .

٤- الظواهر المعنوية واختلاف الرواية : لم يتأثر الاستنباط الفني في دراسة الظواهر الأسلوبية المؤسسة على المعنى – بطبيعة الحال – باختلاف الرواية؛ لأن المعنى واحد مهما اختلفت صورة التعبير عنه . وهذا ملحوظ في ظاهرتي وقف الاطراد الفكري والتدافع التعبيري المشار إليهما قبل أسطر.

٥- تسميات جديدة : استحدَثَ البحثُ بعضَ التسميات الجديدة لبعض الظواهر الأسلوبية المكتشفة ، وهي تسميات قد تمتد إلى جذور شبيهة بها في الدرس البلاغي . ولكن سر صياغتنا إياها على هذا النحو – وهو موضحٌ في صلب الدراسة – هو أن ثمة خصوصية ما ، وزاوية نظر ما نابعة من طبيعة

هذه الظاهرة قد تحكمت في تلك التسمية. نذكر من ذلك ظاهرة : الاستغناء النسقي ، وظاهرة الاطراد ، ونحوهما.

٦- إلحاح بعض الظواهر: لمس البحثُ – من خلال عينته – حضورَ بعض الظواهر الأسلوبية ومثولها بشكل لافت للنظر ، وذلك مثل ظاهرة (السمت الحكائي) ؛ ولعل ذلك يرجع إلى شدة تأثير هذه الطريقة التعبيرية في المتلقين ، واستحواذها على مجامع قلوبهم وبلاغتها في الإقناع والدعوة إلى الخير والعدل والرفق والبرّ، ونحوها من تعاليم الإسلام السمحة .

٧- ظاهرة المثال الوحيد والتوصية الأولى: إن بعض الظواهر التي عالجها هذا البحثُ بُنِيَ الاستنتاجُ فيها على مثالٍ وحيد ! . وقد يدفع هذا الأمرُ إلى الزعم بِكَوْنِ ذلك قاصرًا في الدلالة . والحقيقةُ – في رأيي – ليست مع هذا الزعم ؛ حيث إن الظاهرة – من هذا النوع – قد اكتملت أركانُها واستوفت حُجتَها في المثال المَسُوق اكتمالًا تامًّا يحقق وجودَها . ويبقى على شُداة البحث أن يتتبعوا ورودَها في عيِّناتٍ أخرى من نصوص الحديث الشريف.

٨- التوصية الثانية : ينبغي للباحثين في هذا المجال توخي الحذر عند التعامل مع النص النبوي الشريف ، من زاوية حسبانه نصًّا أدبيًّا خالصا ؛ إذ إنه ليس كذلك تمامًا ! بل إنه نصّ أدبيٌّ ذو قداسة غايتُهُ الدعوةُ إلى الله وترسيخ القيم الحميدة ، وليس إمتاعَ المتلقين بِحُسْن الخطاب، كما هو في النصوص الأدبية الأخرى.

٩- التوصية الثالثة : بالنظر إلى اتساع السنة الشريفة ، فإن على الباحثين مهمةَ مطالعة الدراسات السابقة في موضوعاتهم ، ثم اختيار عينات الدراسة لتشمل أحاديث نبوية أو قدسية لم تصل إليها أيدي الباحثين ، ما وسعهم ذلك ؛ حتى يتهيأ لهم تحقيقُ نتائج جديدة ، بل مغايرة تسهم في إبراز الجوانب الخفية من عظمة البيان النبوي الشريف.

* * * * * *

ثبت المصادر والمراجع [٣٧]

١- الأنباري (كمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو البركات) : الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين - تحقيق/محمد محيي الدين عبدالحميد - المكتبة العصرية- الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢- البخاري (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة) : الأدب المفرد - تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي- دار البشائر الإسلامية - بيروت- الطبعة : الثالثة، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م .

٣- الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة) : سنن الترمذي - تحقيق وتعليق/ أحمد شاكر وآخرَيْن - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر- الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٤- الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد) : أسرار البلاغة فى علم البيان - تحقيق: عبد الحميد هنداوي - دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٥- حسن (عباس) : النحو الوافي - - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الخامسة عشرة (د.ت.).

٦- حشيشي (سهام): المفارقة في مقامات الحريري .. مقاربة بنيوية - ماجستير من كلية الآداب واللغات-جامعة الحاج لخضر- بانتة- الجزائر- ٢٠١١/٢٠١٢م.

(٣٧) لم يُعْتَدّ في ترتيبها بلفظة (ابن) ولا (أبو) و لا (ال) التعريفية .

٧- درويش (د. أحمد) : دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث - دار غريب للطباعة - القاهرة - (د.ت.)

٨- سديرة (سهام) : بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف - ماجستير من كلية الآداب ، جامعة منتوري/قسنطينة - الجزائر- ٢٠٠٥/٢٠٠٦م.

٩- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي): مفتاح العلوم- ضبط وتعليق/ نعيم زرزور- دار الكتب العلمية - بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

١٠- شهاب (د. هناء محمود) ، رعد رفعت محمد مولود: أسلوب الخبر في الحديث النبوي الشريف من حوار يثيره الصحابة- مجلة آداب الرافدين- السنة ٢٠١٣م-الإصدار٦٧.

١١- عزالدين(د. كمال) : الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية - دار اقرأ - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٤ه/١٩٨٤م .

١٢- العسكري(أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران): كتاب الصناعتين- تحقيق/علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية - بيروت ١٤١٩ه.

١٣- عمر (د. أحمد مختار) : البحث اللغوي عند العرب - عالم الكتب - القاهرة - الطبعة الثامنة ٢٠٠٣م.

١٤- عودة (د. عودة خليل أبوعودة) : بناء الجملة في الحديث الشريف في الصحيحين - دار البشير - عمّان - الطبعة الأولى ١٩٩٠.

١٥- فتح الله (د. عبدالعزيز) : الأسلوبية والنص النبوي الشريف..مدخل للدراسة - رجب١٤٣٠ه/٢٠٠٩م - (د.ن.).

١٦- محمودي(شعيب): بنية النص في سورة الكهف ... مقاربة نصية للاتساق والسياق - ماجستير من كلية الآداب جامعة منتوري- قسنطينة - الجزائر - ٢٠٠٩/٢٠١٠م.

١٧- مسلم بن الحجاج النيسابوري : المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - تحقيق / محمد فؤاد عبدالباقي- دار إحياء التراث العربي - بيروت - ٢٢٧٣/٤ .

١٨- مصلوح (د. سعد) : دون اللوم وفوق العتاب - مجلة علامات ج٣ م١- شعبان١٤١٢ه / مارس١٩٩٢م .

١٩- المطيري(د. فرحان): معالم البنية في قصيدة الرحلة - مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة - إصدار خاص ٢٠١٢م.

٢٠- يعقوب (قادة) : الأمثال النبوية دراسة أسلوبية - ماجستير من معهد اللغة العربية بجامعة الجزائر- ٢٠٠٢/٢٠٠٣م .

فهرس البحث

م	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
١	تقديم	٤٨١
٢	السمت الحكائي	٤٨٧
٣	التوازن البنائي	٤٩٩
٤	التمثيل والتخييل	٥٠١
٥	الاطِّراد والتَّدَافُع التعبيري	٥٠٣
٦	وقف الاطراد الفكري	٥٠٥
٧	الكناية / الإشارةُ والإيحاء	٥٠٦
٨	الاستغناء النسقي/الإيجاز	٥٠٨
٩	التناهي القطعي	٥٠٩
١٠	النتائج والتوصيات	٥١٢
١١	ثبت المصادر والمراجع	٥١٤
١٢	فهرس البحث	٥١٧